

ونحن أيضاً مخطئون

د. كاظم السهلاني

تتحقق التحولات في المجتمعات عبر التغيير في أنظمة الحكم، فهناك أنظمة يتم تغييرها عبر الانقلابات العسكرية التي سرعان ما يسود فيها حكم العسكر. وبعضها يتغير من خلال الانتفاضات والثورات التي تؤشر حالة متصاعدة من الاحتجاج والرفض الشعبي الذي يفوق قدرة السلطة على قمعه، التي غالباً تتحول بيد حزب يؤدلج المجتمع ويصبغه بلون واحد ويقمع أي رأي مخالف أو معارض. التغيير الثالث هو الذي ينتج عن حالة من النمو الذي تعمل عليه نخبة فكرية يؤدي الى تحولات بنيوية في المجتمع تفرض على السلطة التماهي معه، والتعاطي الإيجابي. هذه حالات التغيير المذكورة تميز بين التغييرات في البنى التحتية والبنى الفوقية، وهو ما يؤشر الى حد بعيد مديات ترسخها وقدرتها على الاستمرارية والتراكم باتجاه النضج المجتمعي. وفي حالة العراق فان التغيير جاء بإرادة خارجية، وجيء بالديمقراطية كوصفة جاهزة لنظام حكم، افرز صورة مشوهة للديمقراطية، تستغل فيها الطبقة السياسية الشعب، وتعمق من سياسات التجهيل والتسطيح لتحافظ على رصيدها في الصندوق الانتخابي.

نحن أحد الشعوب التي عانت الامرين من الظلم والقهر تحت حكم أنظمة مستبدة تستبدل بعضها البعض بانقلاب دموي واحداً يتلو الاخر، وعانينا كل أنواع القمع والخوف، كان حلمنا الكبير هو ان ننال حقنا في الكرامة التي تسمح لنا باختيار من يخدمنا لا ان يسود علينا، وقد تحقق هذا الحلم، وان كان بطريقة لا نريدها، لكن محصلتها النهائية انها وضعت حد لحكم الاستبداد الحزبي او الفردي، وصار من حقنا ان نختار ما يفترض ان يكونوا موظفين خدمة عامة لدينا، دون تقديس او ضرورة او إذا قال ... قال العراق. فكيف تعاطينا مع هذا التغيير، وماذا فعلنا بأنفسنا ووطننا؟

تعاملنا معه بعدم اهتمام، فشرعنا الأبواب العريضة امام كل طامع في الامتيازات وجوازات السفر الحمراء والعمولات (الكومشنات) والمضلات الحكومية الفارهة وافواج الحماية والصيانة المجانية لما أعطب بأجسادهم، وانحنينا ودعيناهم ان ينفشوا ريشهم ويزهون

كالطواويس علينا، ورحنا نضع الخطوط الحمراء القاتمة امام أسماءهم، وعدنا من جديد فحولنا ما يفترض هم موظفين لدينا الى سادة علينا، فرفسنا نعمة الاختيار وهرولنا نحو نقمة الانهيار. وبعد ثلاثة تجارب انتخابية خدعونا وخدعنا أنفسنا فيها بشعارات الطائفية، وبعد ان افرغت اموالنا في ارضدهم بالخارج ومن فر بالغنيمة فر، ومن لازال ينتظر على ابواب المطارات، وجلسنا نبكي على اللبن المسكوب، ونخدع أنفسنا من جديد، وبدلاً من ان نحول صحوتنا المفترضة الى صحوة عقاب لمن أفسد وأهدر والبحث عنم يقدم حالة مغايرة، ركن البعض الى زاوية قصية، واعتلى اخر قمة الجبل، وكان لسان حالنا يقول هلموا واتوا بجمهوركم المنتفع من فسادكم ليعيدكم من جديد فوق رؤوسنا.

لا نلوم القدر، ولا نلعن الظلام، ولا نتذرع بأوهام، فكل شيء بيدنا، فنحن قادرون ان نجعل الكتلة الصغيرة كتلة كبيرة ونقلب السحر على الساحر، وبيدينا ان لا نصوت للفساد المجرب، وبيدينا ان لا نبيع صوتنا وضميرنا مقابل كارت اتصال، وبيدينا ان لا نجعل من انفسنا مخدوعين بملف تعيين ومستند طابو كاذب، وبيدينا ان لا نصوت حتى نرفع اسم العشيرة فنحن لسنا في عراضة عشائرية، وبيدينا ان لا نعرض حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أطفالنا في مزاد رخيص، فعندما تمنح صوتك لفساد او فاشل فانت شريك في الخطيئة، ولا يمكنك ان تلوم اللص كونه لص ففي كل العالم هناك لصوص لكن نلوم من يشرع له الأبواب والخزائن ويدعو بعد ذلك البراءة.

لنصارع أنفسنا، ونقف امام المرأة ونتبين اخطاءنا، فالحلول لا تأتي هدية من السماء، ومن لا يسعى لإعانة نفسه ووطنه لن يعينه الله، وسيبقى يتجرع السم، ان لم يشعر في روحه فلا شك انه سيشعر به كل صباح على وجهه.

لنتحمل مسؤوليتنا ونكفر عن خطايانا ونختار الاصلاح.